

تجليات القصة القرآنية ودلالاتها في شعر محمود درويش

(قصة قابيل وهابيل أنموذجا)

إعداد:

مرتضى بابكر أحمد عباس

استاذ مشارك – جامعة وادي النيل – كلية التربية (قسم اللغة العربية)

المستخلص:

القصة القرآنية واحدة من أبرز مرجعيات شعراء الحداثة وأكثرها تجلياً وحضوراً وتأثيراً ، بما تحققه لنصوصهم من تواصل مع الأمة، من خلال الاتصال بذاكرتها المقدسة التي خلدها القرآن الكريم فللقرآن الكريم أثر كبير على الشعر العربي الحديث وهو الأثر الذي بدأ واضحاً حيناً، ومستتراً حيناً آخراً وقد استطاع الشاعر محمود درويش أن يوظف القصة القرآنية في شعره ليكشف من خلالها عن القيمة الدلالية والجمالية التي تحققها القصة القرآنية. ونظراً لطبيعة الدراسة التي تتسم بالقصر فقد اخترنا قصة " قابيل وهابيل " وما تحمله من دلالات ميدان للدراسة. فكانت الدراسة بعنوان : (تجليات القصة القرآنية ودلالاتها في شعر محمود درويش).

الكلمات المفتاحية: تجليات ، القصة القرآنية، دلالات.

Abstract:

The Quranic story is one of the most prominent references of modernity poets and the most evident, present and influential, with what it achieves for their texts of communication with the ummah, through contact with its sacred memory immortalized by the Holy Qur'an. The poet Mahmoud Darwish is to employ the Quranic story in his poetry to reveal through it the semantic and aesthetic value that the Quranic story achieves. Due to the short nature of the study, we chose the story of "Cain and Abel" and its implications for the field of study. The study was entitled: (The manifestations of the Quranic story and its significance in Mahmoud Darwish's poetry)

Key words: *manifestations, the Quranic story, connotations.*

المقدمة:

لجأ كثير من الأدباء والشعراء والمفكرين إلى القرآن الكريم في أعمالهم لاسيما الشعرية منها فاستلهموا معانيه وألفاظه وأخيلته في صورها المختلفة مفتونين بأسلوبه وروعة تعبيره.

ومن الظواهر الملفتة للنظر في الشعر العربي الحديث، عودة الشعراء إلى التراث الأدبي بأجناسه المختلفة لاسيما القصة التي هي " وسيلة من وسائل القرآن الكريم في سبيل تحقيق هدفه الأصيل. وهي إحدى وسائله لإبلاغ الدعوة وتثبيتها (قطب، 1983م).

وقد ارتبط الشعر الفلسطيني – على وجه الخصوص- بالقرآن الكريم ارتباطاً لا يغفله القاري، ذلك أن قضية احتلال فلسطين في أساسها قضية دينية أكثر من كونها قضية سياسية، فمزج الشعراء في أشعارهم البعد الديني بالبعد السياسي وانعكس ذلك جلياً في شعرهم لاسيما في شعر ابن فلسطين وشاعرها محمود درويش .

وقد حظيت القصة القرآنية بالدراسة والتحليل من قبل الباحثين، لكنه كان تحليلاً تقليدياً في شكله العام يقتصر في مجمله بشكل كبير على الشخصيات والإحداث في حين افتقرت تلك الدراسات إلى بيان أثر القرآن على مجريات الأحداث وأسلوب الشاعر ومدى تأثره بإحداث وشخصيات وزمان ومكان القصة القرآنية.

ويهدف الباحث من خلال هذه الدراسة لبيان أثر القصة القرآنية في شعر محمود درويش ومدى انعكاس الأسلوب القرآني على شعره ومن ثم بيان الدلالة التي يهدف الشاعر إلى إيصالها لعقول القارئ. وقد اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وذلك لتناسبه مع طبيعة البحث.

محمود درويش مولده وحياته:

محمود درويش هو شاعرٌ فلسطيني، ولد في قرية البروة في الجليل الغربي عام 1941م، ونتيجة لنكبة عام 1948م لجأت أسرته إلى لبنان، مارس محمود درويش كتابة الشعر في سن مبكرة، وكانت أولى محاولاته الشعرية تقليد الشعر الجاهلي، حيث كان مولعاً بالأدب العربي القديم ففي سنة 1960م صدر الديوان الأول لمحمود درويش بعنوان " عصفير بلا أجنحة " وفي العام 1970م صدرت له مجموعة دواوين شعرية هي " عاشق فلسطين، آخر الليل، حبيبتني تنهض من نومها، يوميات جرح فلسطيني، العصفير تموت في الجليل، والكتابة على ضوء البندقية.

وبعد عام 1971م صدرت له مجموعة دواوين أخرى منها: " أحبك أو لا أحبك، ومحاولة رقم 7".

تناول محمود درويش في مجموعة أشعاره التي أصدرها قضية فلسطين وعالج قضايا الشعر الفلسطيني وتحدث عن الغربية، والضحايا، والشهداء، والحنين إلى فلسطين إلى مدنها وقرائها (فرج، 2015م).

وفي الفترة الممتدة من سنة 1973 إلى سنة 1982 عاش في بيروت وعمل رئيساً لتحرير مجلة شؤون فلسطينية، وأصبح مديرًا لمركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية قبل أن يؤسس مجلة الكرمل سنة 1981م (ويكيبيديا، موقع الكتروني).

توفي محمود درويش في الولايات المتحدة الأمريكية يوم السبت 9 أغسطس 2008 م بعد إجرائه لعملية القلب المفتوح في مركز تكساس الطبي في هيوستن، تكساس، التي دخل بعدها في غيبوبة أدت إلى وفاته بعد أن قرر الأطباء في مستشفى "ميموريال هيرمان" نزع أجهزة الإنعاش بناءً على توصيته.

وأعلن رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس الحداد ثلاثة أيام في كافة الأراضي الفلسطينية حزناً على وفاة الشاعر الفلسطيني، واصفاً درويش بقوله: "عاشق فلسطين" و"رائد المشروع الثقافي الحديث، والقائد الوطني اللامع والمعطاء".

وقد وري جثمانه الثرى في 13 أغسطس 2008م في مدينة رام الله حيث خصصت له هناك قطعة أرض في قصر رام الله الثقافي. وتم الإعلان أن القصر تمت تسميته "قصر محمود درويش للثقافة" (ويكيبيديا، موقع الكتروني).

تجليات القصة القرآنية في الشعر العربي الحديث:

تشير كلمة (قصة) في أصلها اللغوي إلى تتبع الأحداث التي وقعت في الماضي، وانتهت فيه، ومن ذلك قص الأثر، ولذا نجد هذا المعنى يرد صراحة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: { وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } (القصص: الآية 11) في إشارة إلى طلب أم موسى من أخته تتبع أثره، ومعرفة أين وصل به التابوت وأين حمله ماء اليم، فكلمة (قصة) كما أورد الطبري في تفسيره تعني تتبع الأثر يقول: "قصي أثر موسى، أي: اتبعي أثره، وتقول: قصصت آثار القوم إذ اتبعت آثارهم (الطبري، 1994م).

وضمن هذا الفهم المعجمي فإن في تسمية ما ورد من أخبار الماضي في القرآن (بالقصص) قال تعالى: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } (يوسف: الآية 3) يقول الله تعالى مخاطباً محمد صلى الله عليه وسلم " نحن نقص عليك " يا محمد، " أحسن القصص " بوحينا إليك هذا القرآن ، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السالفة والكتب التي أنزلناها في العصور الخالية تأكيداً على ارتباطها الوثيق بواقع تاريخي، سواء عرفه الناس، أم لم يعرفوه، مجملاً كان أم مفصلاً (الطبري، 1994م) " فتعبير " أحسن القصص " أو " القصص الحق " يعني ذلك القصص المبرراً من التدليس والوهم والكذب، كما يعني القصص الذي يعرض جوهر الأشياء والأشخاص والأحداث، ولا يكتفي بظواهرها، ويقف عند حدود حركتها.

ولعل من الظواهر البارزة في الشعر العربي الحديث، عودة شعرائه إلى التراث، واستثمار رموزه، وما تتيحه من تفجير لمكنات اللغة في التعبير العميق والمكثف، والواعي عن التجربة الشعرية، حيث تتكى على ثابت من ثوابت الذاكرة الجمعية، وتستند إلى مستقر في الوعي العام، وتبني رؤاها على راسخ يمنحها قسطاً من الفنية والموضوعية، ويسبغ عليها

لونا من ألوان الشرعية، حين تربط الحاضر بالماضي، وتدوب فيه، وتعيد تشكيله بما ينسجم ورؤية الشاعر وموقفه، فالنص الشعري الحديث، بنية مفتوحة متعددة الدلالات والمستويات والمحاور، والشاعر أخذ يقيم علاقته بالتراث، من خلال رؤية جدلية لا يستسلم فيها له ولا يستدعيه استدعاء سلبياً، بل ينطقه بما يريد (الجبار، "د.ط").

وإذا كانت العودة إلى التراث بمجمله، تحقق للشاعر عمقا في التعبير عن التجربة، فإن في استلهاهم التراث الديني ما هو أبعد من ذلك وأعمق، بحضوره، وسطوته، ومساحته الكبرى التي يحتلها في الذاكرة الجمعية للأمة، وانتصابه عنصرا تكوينيا أصيلاً في الفكر والوجدان، لا طارئاً عليهما، لذلك فإن عدم الوعي بمنزلته، وخطورة حضوره يشكل مثابة تحرم المشتغلين بفنون القول وفي مقدمتهم الشعراء من فرصة عظيمة لإثراء قولهم، ورفد تجاربهم، من خلال ربطها بأصل عظيم، وجذر عميق متصل بأعمق نقطة في الوعي والوجدان، وبأعظم ما في المرء، وأكرم ما فيه، بروحه، وهو ما وعاه شعراء الحداثة، فأخذوا يستثمرون معطياته الروحية والنفسية العظيمة، إضافة إلى معطياته الرمزية والفنية الكبيرة، لأن " الفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس (قطب، 1983م) "

ومن الواضح أن دخول النص الشعري بعلاقة مع القصة القرآنية، يمنحه طاقة وجدانية ودلالية هائلة، ويحفز ذاكرة المتلقي، فالشاعر حين يستدعي القصة القرآنية ويحاورها ويتقاطع نصه معها، يدفع المتلقي لاستحضار القصة القرآنية (الغائبة) داخل النص الشعري (الحاضر) لينتج دلالة نصية جديدة، والشاعر لا يعمد إلى القصة القرآنية - وكذا أي نص غائب- من أجل إعادة سردها، بل لاستثمار " إمكاناتها الإيحائية المضادة للتقرير المباشر للأفكار والعواطف (فتوح، 1987م) " ويعمد إلى خلق ذاكرة ثانية إلى جانب الذاكرة الأولى - القصة - ليفجر إمكانات جديدة للتعبير وبالتالي إغناء النص وتخصييه، عبر استعادة بعض أدواتها التعبيرية (إسماعيل، 1972م) إذ إنه يخلق باستدعائه " برزخا يتعداه ليصل من ورائه إلى تمثل معان أخرى (عيد، 1979م) ، تمثل وتؤكد سلطته الإبداعية التي تمنحه حق التصرف.

والقصة القرآنية بصبغتها الدينية، ذات طبيعة معرفية خاصة، شأنها شأن الخطاب الديني كله، الذي يمنح الإنسان تصوراً عميقاً للوجود، ويجب عن تلك الأسئلة الملحة لديه.

وقد استدعى الشاعر محمود درويش كثيراً من القصص القرآنية في شعره مثل قصة " يوسف، وأيوب، وموسى عليهم السلام، وقصة (قابيل وهابيل) موضع الدراسة.

تجليات قصة هابيل وقابيل في شعر محمود درويش:

تمثل قصة ابني آدم الخطيئة الأولى في السماء الدنيا، قدم (هابيل) المسفوح ظلماً على يد أخيه هو الدم الأول. و(قابيل) هو أول قاتل على الأرض كما أن (هابيل) أول قتيل في الأرض. و(هابيل) هو رمز للسلم والتسامح، و(قابيل) رمز للقتل والظلم.

وقصة (قابيل وهابيل) من أشهر القصص، وقد وردت في بداية سفر التكوين، ثم في القرآن الكريم قال الله تعالى: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ

يَتَقَبَّلُ مِنَ الْآخِرِ قَالَ لِأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٤﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٥﴾ (المائدة: الآية 31-27)

هذه القصة تحكي بداية الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، عرض القرآن الكريم قصة قتل قابيل لأخيه هابيل ، ولم يورد من الأسباب لذلك، غير سبب واحد هو عدم تقبل قربان قابيل القاتل ، في المقابل تقبل قربان هابيل الضحية، الذي وصفه القرآن الكريم بأنه ظالم، فليس لهابيل يد في تقبل قربانه، وعدم تقبل قربان أخيه، الذي خسر أخوة أخ مسالم، لا يقابل الأذى بأذى مثله، فكان من النادمين، فكل ظالم وخاسر لا بد أن يمتلكه الندم.

ولقد لحق بالقصة إضافات وحواشي وتعليقات وزيادات في أساطير اليهود، تسربت إلى بعض كتب التفسير الإسلامية، والتاريخ، وكتب قصص الأنبياء (عرائس المروج للثعلبي) و(قصص الأنبياء في للكسائي) (عباس، 2006م).

فملخص ما ذكره أئمة السلف الصالح في ذلك : " أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمر آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانا، وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السموات على بنيه فأبين، والأرضيين والجباليين فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك. فلما ذهب قريبا قربانها، فقرب هابيل جذعة سميحة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لاقتلنك حتى لا تتكح أختي (ابن كثير، 1988م) ، فقال تعالى : { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } (المائدة: الآية 27).

وقد برزت قصة ابني آدم بوصفها فكرة مهيمنة، وثيمة أثيرة لدى شعراء الحداثة، الذين استدعوا لها لتدخل في بناء قصائدهم ، وتساعد في التعبير عن تجاربهم، وتقديم رؤى شعرية تتأى بهم عن المباشرة، متوسلين بعض آليات السرد الحديثة، أو متقمصين صوت الضحية (هابيل) الذي علا رمزا يوارى به الشعراء أصواتهم، ليعلنوا مواقف معاصرة وتجارب حاضرة بقوة في الوعي..

ومن النصوص المبكرة التي استحضرت قصة قابيل و هابيل، القصيدة المعنونة بـ " قابيل و هابيل" للشاعرة نازك الملائكة ضمن مطولة شعرية أسمتها مأساة الحياة، وأشارت إلى أنها كتبت بين عامي 1945-1946م والتي تقول فيها:

ولماذا ينسى وهل ثم في الأر***ض عزاء عن حلمه المعسول

كلمة لاذ بالخيال تجلبي *** لأساه ما كان من قابيل (الملائكة،
2002م)

ثم تلى نازك الملائكة السياب الذي جعل من " قابيل " ليس رمزا للقتل وحسب، بل إلهيا للدمار، ويسبغ عليه سمات أسطورية يصوره وقد شد السماء بزنده، في مقطع من قصيدته " المعبد الغريق " التي يصور فيها قمع الناس في الموصل ذات زمان عراقي يقول:

يا نهرا من الحقد

تدفق بالخناجر والعصي بأعين غضبي

نجوما من سماء شدها قابيل بالزند (السياب، 1986م)

ولعل محمود درويش من أكثر الشعراء استلهاماً واستحضاراً لقصة قابيل وهابيل، حيث تكرر حضورها في أكثر من نص، وبقيت فكرة قتل الأخ لأخيه، التي ترمز إليها قصة قابيل وهابيل، مسيطرة على درويش الذي تناولها وأشار إليها كثيرا في أكثر من مناسبة، ومن نصوصه تلك " يعانق قاتله " التي مثلت قصة (قابيل وهابيل) خلفية مرجعية لها، رغم أن درويش لم يشر البتة في ثنايا النص أو عنوانه إليها، إلا أن السياق النصي يحيل المتلقي إلى القصة القرآنية، تقول القصيدة:

يعانق قاتلة كي يفوز برحمته: هل ستغضب مني كثيرا إذا ما نجوت؟

أخي... يا أخي ! ما صنعت لتغتالني؟

فوقنا طائرات فصوب إلى فوق!

أطلق جحيمك أبعد مني... تعال إلى كوخ أمي

ماذا صنعت بقهوة أمي وأمك؟

ماذا جنيت لتغتالني يا أخي

لن أحل وثاق العناق

لن أتركك!! (درويش، 1987م)

فالشاعر يستدعي هنا شخصيتي ابني آدم : قابيل وهابيل للتعبير عن حالة الصراع الأخوي بين أبناء آدم على وجه الأرض، منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، " فقابيل يعد مثال الساخط المتمرد الضائق الذرع بما لا يعرف له كنها من مسائل الخير، والشر، ووجود الخالق " (هلال، 1999م).

ومنذ قتل قابيل أخاه هابيل، وهام في البرية يحمل وصمة الذنب الذي جناه، والإنسان لا يكف عن القتال، تلك هي صورة قابيل التي عرفتها البشرية (عبدالهادي، 2014م).

يقول درويش متسائلا عن قتل قابيل أخاه:

هل كان أول قاتل – قابيل- يعرف أن نوم أخيه موت؟

هل كان يعرف أنه لا يعرف الأسماء بعد، ولا اللغة (درويش، 1994م)

كما يرى درويش أن حادثة قتل هابيل بن آدم تستعاد يوميا من خلال قتل الإنسان الفلسطيني يوميا على أرضه المحتلة حيث تتجسد هذه الحادثة التاريخية- الدينية كل يوم في صورة الفلسطيني، ومن ذلك قول الشاعر:

سعف النخيل إذا أرادوا أو سطوح خيولنا ، وستنتحب

الأم الحزينة إخوة ليتوجوا هابيلهم ملكا على عرش التراب

لكن رحلتنا إلى النسيان طالت ... والحجاب أمامنا غطي الحجاب (درويش، 1994م)

حيث يبدو بشكل واضح استدعاء درويش للنص التوراتي : " وحدث إذ كان في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله، فقال الرب لقابيل: أين أخوك؟ فقال : لا أعلم، أحارس أنا لأخي ؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض" (سفر التكوين، 1995م).

يرى عبدالرحمن بسيسو " أن درويش هنا يحاول اقتناص بعض إحياءات النص الديني بما يوحي النص المحدث، فدرويش حينما يستدعي شخصية هابيل إنما ليبر عن شخوص الواقع العصري، فيكون ذلك الرمز موافقا لملاحمهم من ناحية، ومخالفا من نواح أخرى، فالיום لا يوارى هابيل بل يتوج على عرش التراب فهذا الانحراف النصي يوحي بالقوة المتصدية للواقع، فهابيل الفلسطيني أسمى من أن يورى ، فنقل هابيل من الموارد إلى التتويج يشير إلى الخلود.

وفي قصيدة " فرس للغريب" يستعيد درويش قصة القاتل قابيل وهو يصور مشهدا عربيا آخر، وهو مشهد الشعب العراقي الذي توحد فيه العرب في رمز قابيل القاتل ضد أخاهم (شعب العراق) الذي هو رمز لهابيل القاتل يقول:

يا صاحبي، بيننا كأن القصائد غيم الأساطير

لا الشرق شرق ولا الغرب غرب

توحد إخوتنا في غريزة قابيل

لا تعاتب أخاك

فإن البنفسج شاهد القبر (درويش، 1994م)

وثمة في القصيدة إشارات متوالية تظهر أن موضوعها (العراق) ، بدأها الشاعر بإهداء القصيدة إلى شاعر عراقي، ثم توالى الإشارات: بابل، وجلجامش، وسومر، والرصافة، ودجلة

والفرات، وأكراد الشمال لتوجه عملية التلقي صوب العراق الذبيح، بفعل أهله وإخوته، ومغول هذا العصر.

إضافة إلى أن الشاعر لا يلغي نفسه بالحلول في شخصية أخرى بل يتفاعل معها، فينتقي، ويحطم، ويلهب كل شيء بشعاع الرؤيا الخاصة (بسيسو، 1999م) " فالشاعر يعيد صيغة الشخصيات الغابرة ويجسدها في الشخصيات الحاضرة، التي تكتسب حيثياتها من الماضي والحاضر معاً، إذ يقول الشاعر مكرراً الفكرة التي تعيد هابيل بن آدم إلى الحياة، حيث يقول درويش في قصيدة بعنوان " حير الغراب ":

أنت متهم بما فينا. وهذا أول

الدم من سلالتنا أمامك، فابتعد

عن دار قابيل الجديدة

مثلما ابتعد السراب

عن حبر ريشك يا غراب

أنا هابيل يرجعني التراب

إليك خروبا لتجلس فوق غصني يا غراب (درويش، 1995م)

حيث تمثل شخصية هابيل المقتول على يد أخيه قابيل رمزا للإنسان الغادر لأخيه الإنسان، فيما تمثل شخصية قابيل رمزا للإنسان المغدور على يد أخيه الإنسان، فاستدعاء درويش لحادثة قابيل وهابيل تمثل بحثاً عن معادل موضوعي يسقط فيه الشاعر الفلسطيني حاضر شعبه الفلسطيني المذبوح على يد اليهود على حادثة القتل الأخوي بين بني آدم هابيل وقابيل.

يقول درويش أيضاً في ديوانه (لماذا تركت الحصان وحيداً)

لك خلوة في وحشة الخروب ، يا

جرس الغروب الداكن الأصوات، ماذا

يطلبون الآن منك؟ بحثت في

بستان آدم، كي يوارى قاتل ضجر أخاه

وانغلفت على سوادك

عندما انفتح القتل على مداه

وانصرفت إلى شؤونك مثلما انصرف الغياب (درويش، 1995م)

من هنا يتضح أن درويش يستحضر في نصوصه نماذج بشرية ذات دلالات نفسية معينة، فحادثة هابيل وقابيل مثال للقتل الأخوي، إلا أن الشاعر يستحضرها كمثال لقتل شعوب الأرض لبعضهم البعض، ومنها ما يتعرض له شعبه الفلسطيني من إبادة على يد المحتلين اليهود، معتبراً هذا بمثابة قتل أخوي، لأن البشر إخوان في الآدمية، رغم أن الصهيونية كحركة استعمار في العصر الحديث اتخذت من نصوص التوراة وسيلة للعدوان على شعوب الأرض، حيث يقول درويش: " إذا كان الله قد عاقب آدم بطرده من الأبدية إلى الزمن، فإن الأرض منفي والتاريخ مأساة، بدأت بحرب عائلية بين قابيل وهابيل، ثم تطورت إلى حروب أهلية وإقليمية وعالمية، مازالت مستمرة إلى أن يقضي أحفاد التاريخ على التاريخ، فماذا بعده؟ ماذا بعد التاريخ؟ يبدو أن حق العودة إلى الجنة محفوف بالعدم وبالأسرار الإلهية(درويش، 2006م) "

وفي قصيدة (من فضة الموت الذي لا موت فيه) يبدو الاستدعاء أقل وضوحاً، عبر الإشارة إلى كثرة (الإخوة الأعداء) الذي يحيلون الدم بارداً:

كم من أخ لك لم تلده الأم يولد من شظاياك الصغيرة

إلى ما أضيق الأرض التي لا أرض فيها للحنين إلى أحد(درويش، 1995م)

ففي هذا المقطع يستدعي درويش المثل الشهير (رب أخ لك لم تلده أمك) ليصل إلى مقابلة: كم من عدو غامض ولدته أمك " وتبدو كلمة " غامض " رصينة في موقعها، قد لا تتمتع حقاً بمعنى غير عادي، لكنها تؤدي وظيفة داخل السياق، فالأخوة في الأصل نقيضة العداء، لأنها إحساس بالأمن والمودة والانجذاب، فإذا كان الأخ هو العدو، فهو عدو غامض، لأنها حالة ضد طبائع الأمور ، وعداوة الأخ تجعلها الأخوة بوصفها قيمة مقدسة ، تجعلها غامضة، ومستترة، ونموذجها في النص " أخوة قابيل " القاتل لأخيه القاتل " هابيل " ولعل الإشارة التي تحيل إلى هذا الاستدعاء، هي ورود اسم آدم، الذي خرج من فردوسه، كخروج درويش من فردوسه المفقود " فلسطين " إلى أرض رغم اتساعها، تضيق بالحنين إلى أحد وفكرة الإخوة الأعداء، التي تحيل إلى (قابيل وهابيل) طالما ردها درويش في أكثر من قصيدة، ففي قصيدة (الهدهد) يقول:

ستتجب الم الحزينة إخوة كي يسكنوا

سعف النخيل إذا أرادوا سطوح خيولنا

وستتجب الأم الحزينة إخوة

ليتوجوا هابيلهم ملكا على عرش التراب(درويش، 1995م)

إنها نبوءة بمستقبل يتوالد فيه القتل، لتكرر المأساة، ويتوج القتل ملكا بعد قتله، في رؤية تذكر بـ " يريدوني أن أموت لكي يمدحوني " التي وردت في قصيدة " أنا يوسف يا أبي " لتتشكل الرؤية العامة (للإخوة الأعداء) من كل النماذج السابقة، أخوة قابيل وهابيل، التي قادت هابيل

ليكون ضحية ويسكن القبر، وأخوة إخوة يوسف التي قادت يوسف إلى الجب والسجن والمنفى ، وصولاً إلى (ال فلسطيني) الذي يعاني من إخوته، ومن أعدائه...
لم يبق سيف لم يجد غمداً له في لحمنا

والإخوة الأعداء منا

أسرجوا خيل العدو ليخرجوا من لحمنا (درويش، 1995م)

كما يستحضر درويش قضية هابيل وقابيل في يومياته (أثر الفراشة) تحت عنوان (هدير الصمت): " لو أرفنا السمع لسمعنا صوت ارتطام التفاحة بحجر في بستان الله، وصرخة هابيل الخائفة من دمه الأول، وأنين الشهوة الأصلي بين ذكر وأنثى لا يعرفان ما يفعلان، ولسمعنا تأملات يونس في بطن الحوت (درويش، "د.ط") فلعل الشاعر يشير هنا إلى عدم اهتمام الإنسان بألم أخيه الإنسان ومعاناته منذ القدم منذ هابيل إلى يومنا هذا .

ويتكرر لدى درويش " هابيل" رمزا للضحية، ولغدر الأخ في التاريخ البشري، ويبدو لازمة من لوازم رؤيته الشعرية العامة في أكثر من نص ، ففي ديوانه (لماذا تركت الحصان وحيدا) الذي مثل محطات من سيرته الذاتية، نقرأ " فضاء هابيل" الذي يمثل استحضار الضحية غدت شعباً، وصار "قابيل" قاتلاً يتناسل ويتناسخ عبر الأزمنة، لتشكل الخطيئة الأولى خلفية ثابتة تساهم في إنتاج النص، وتنبت عن رؤية شعرية، تبحث في مأساة الإنسان التي يصنعها بأخيه الإنسان، ولم تزل حاضرة، تشوه وجه الحياة بالقتل والظلم.

الخاتمة :

وفي ختام هذا البحث توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج تمثلت في الآتي:

- 1- التفت شعراء الحداثة العرب إلى القصة القرآنية وجعلوا منها أداة من أدوات تشكيل قصائدهم ، وطرح رؤاهم بصورة عامة انطلاقاً من وعيهم للأثر القرآني الكبير في الثقافة العربية .
- 2- استطاع الشاعر محمود درويش عبر توظيفه للقصة القرآنية في الشعر الحديث أن يضيف أبعاد خيالية عكس فيها الشاعر المأسوي والأحزان التي تعترى حياة الإنسان بصورة عامة وحياة الشعب الفلسطيني بصورة خاصة.
- 3- استطاع الشاعر من خلاله مزاجته بين التراث متمثلاً في القصة القرآنية والحاضر متمثلاً في معطيات العصر بكل صراعاته أن يقدم صور شعرية متناسقة أعطت المتلقي أبعاد واسعة وفتحت له المجال للتأويل.
- 4- قصائد محمود درويش زاخرة بالإشارات الدلالية والرموز التي استطاع من خلالها أن يعالج كثيراً من القضايا الاجتماعية وهموم الأمة العربية بصورة خاصة والإنسانية عامة.
- 5- استطاع الشاعر من خلال تناوله لقصة (هابيل وقابيل) وما تحويه من دلالات أن يسلط الضوء على معاناة الشعب الفلسطيني وهوان الدم العربي.
- 6- عبر محمود درويش من خلال قصائده بصورة عامة وحديثه عن قصة (قابيل وهابيل) عن نزعة إنسانية عميقة تكتنفه بعيداً عن التعصب والحقد والكرهية.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

** الكتاب المقدس.

- 1- "إبو الفداء اسماعيل "ابن كثير" قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط3، 1988م
- 2- إحسان عباس: أوراق مبعثرة، بحوث ودراسات في الثقافة والتاريخ والأدب والنقد الأدبي، جمع وتعليق عباس عبد الحليم عباس، جدارا للكتاب العالمي، عمان " د . ط " ، 2006م،
- 3- بدر شاكر السياب: ديوانه ، دار العودة، بيروت، "د.ط"، 1986م، ص181
- 4- بشير سالم فرج: التراث في الكتابات الأدبية والتاريخية، مؤتمر للغة الفرنسية، جامعة بيروت، 2015م، ص2-3
- 5- رجاء عيد: دراسة في لغة الشعر (رؤية نقدية)، منشأة المعارف، الإسكندرية، "د.ط"، 1979م،
- 6- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق ، بيروت، ط8، 1983م ص119
- 7- عبدالرحمن بسيسو: قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر ، تحليل الظاهرة، دار الفارس، عمان ، ط1، 1999م
- 8- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، "د.ط" ، 1972م،
- 9- محمد بن جرير "الطبري" : تفسير الطبري، تحقيق بشار عواد، وعصام فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط1، 1994م
- 10- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة ، بيروت ، " د . ط " ، 1999م،
- 11- محمد فتوح أحمد : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1978،
- 12- محمود درويش: وردة أقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، "د.ط"، 1987م
- 13- _____ : ديوانه، دار العودة، بيروت، مجلد2، ط1، 1994م
- 14- _____ : لماذا تركت الحصان وحيداً، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، "د . ط " ، 1995،
- 15- _____ : أثر الفراشه، يوميات ، نسخة الكترونية.
- 16 - مدحت الجبار : الشاعر والتراث، دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، "د.ط" ، "د.ت"
- 17- نازك الملائكة: الأعمال الشعرية الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2002م،

بحوث علمية:

- 1- عقبه فالح عبدالهادي: الاستعارات الكبرى ودلالاتها في أعمال محمود درويش، جامعة بيرزيت/ فلسطين، رسالة ماجستير ، 2014م

مواقع الكترونية:

- 1-محمود درويش : ويكيبيديا ، موقع الكتروني .www.ar.m.wikipedia.org